

مستقبل العالم لا يزال في يد أمريكا

الكاتب



جميل مطر

ما الجديد في هذا العنوان؟ ألم يلقَ العالم بنفسه في أحضان أمريكا منذ أن اقتربت نهاية الحرب العالمية الأولى وانعقد مؤتمر فرساي، وصدور إعلان الرئيس وودرو ويلسون، بنقاطه الأربع عشرة؟ ألم تتأكد البشرية من أن مستقبل العالم عاد ليضع نفسه في يد أمريكا التي سرعان ما انضمت إلى معسكر الحلفاء في أعقاب الهجوم على بيرل هاربور، وعلى الفور راحت تحارب في جبهتين، جبهة القتال وجبهة مفاوضات لبناء نظام عالمي يحل محل النظام الذي انتهى بالعالم الى حرب عالمية ثانية؟ وضعت أمريكا أثناء الحرب أسس نظام القطبين، ودافعت عنه إلى أن أفلس وانفرط من دون حرب، فقام نظام القطب الأوحده. وقادت العالم منفردة، ولكن محتفظة بالأسس المؤسسية التي أرسنها خلال الحرب العالمية الثانية. وبقيت الأمم المتحدة، وكل أجهزتها تعمل خلال مرحلتي القطبين والقطب الأوحده. تصرفت أمريكا ضمن إطار الشرعية الدولية في قضايا عدة، وتصرفت ضد هذه الشرعية في قضايا أخرى، أشهرها غزو واحتلال العراق، الدولة المستقلة ذات السيادة.

من حيث الشكل لا تزال الولايات المتحدة تقود العالم منفردة، وفي الوقت نفسه تدير منافسة اتخذت في بعض مراحلها طابع الشراسة. وبدأت المنافسة متدرجة في عصبيتها عندما تأكدت أمريكا، والعالم بأسره، أن الصين حققت، ومستمرة في تحقيق، درجات متصاعدة من التفوق الاقتصادي والاستقرار السياسي والسمعة الدولية، بخاصة في علاقاتها بالدول النامية، وباحترامها ميثاق الأمم المتحدة ومواثيق المؤسسات الأخرى التابعة للمنظمة الدولية، الاحترام الذي شفع لها لدى مختلف الدول الكبرى، بخاصة الولايات المتحدة لتنضم لمنظمة التجارة العالمية ولتزداد انطلاقاً. ولم يحدث في أي مرحلة مبكرة من مراحل هذا الصعود أن ووجهت الصين من جانب أمريكا بمواقف عدائية، أو معركة لهذا التفوق. بمعنى آخر كانت الولايات المتحدة، وهي القطب الأوحده، والقائد للنظام الدولي، تدعم الصين في مرحلة لعلها كانت الأهم والأشد حرجاً في مسيرة الصعود إلى مصاف القمة.

اللافت للانتباه في هذه المسيرة، أن الولايات المتحدة كانت مدركة لحقيقة تاريخية، وهي حتمية الصدام بين قوة قائمة

وقوة صاعدة. أدركت هذه الحقيقة مع الصين، ولم تعترض مسيرة صعودها. وقيل في تفسير هذا الموقف المخالف للحقيقة التاريخية ان أمريكا كانت في حاجة لتعاون مع قوة صاعدة لتستفيد، خاصة أن كلاهما سوق هائلة للآخر. أما عن الحقيقة التاريخية فقليل إنها غابت، أو غيّبت بتأثير الثقة الزائدة التي تضخمت في ثنايا العقل السياسي الأمريكي لطول المدة التي قضتها واشنطن تقود النظام الدولي منفردة في حقيقة الأمر، أو بمشاركة في الأغلب رمزية من جانب القطب السوفييتي.

دفعني إلى اختيار هذا العنوان لمقال الأسبوع، تطور جوهرى في جانب من جوانب الحرب المثيرة للجدل في أوكرانيا. إذ تردت في أجهزة الإعلام، في الأيام الأخيرة، تصريحات وتسريبات أعتقد أنها متعمدة عن مواقف وملاحظات لمسؤولين في بعض دول الغرب تنم عن رغبة في تخفيف الالتزام بدعم الأوكرانيين في حربهم ضد جيوش روسيا. مرت فترة شهدت حماسة منقطعة النظير داخل معسكر الغرب. كان الظن أن الحرب ستكون قصيرة. ولم ينتبه معظم القادة، أو انتبهوا وانصاعوا، إلى أن هذه الحرب ربما تكون لغرض آخر غير معلن مثل استنزاف روسيا تمهيداً لإخراجها من سباقات القمة الدولية، أو لغرض ثالث وغير معلن كذلك، وهو تخويف الصين من مصير محتوم إن استمرت في صعودها المتسارع، بينما مظاهر الانحدار الأمريكي تتواصل وتتعدد، بخاصة في الجوانب الداخلية. وطال أمد الحرب. وأظن أن أطرافاً غير قليلة توصلت إلى أن التجربة الأوكرانية فشلت، فحق للأوروبيين، حلفاء أمريكا أن يترددوا، وربما حق للرئيس بايدين نفسه، أن يستبدل لهجة الاعتدال بلغة العنفوان، وبعد أن رصدت أجهزته أن دولاً عدة في أوروبا تغيرت نبرة خطابها السياسي المتعلق بهذه الحرب، وبعد أن تردت مخاوف بين عسكريين غربيين من عواقب خطرة تشمل الجميع إذا استمرت هزائم روسيا على أيدي مدافعين أوكرانيين مدعومين بأموال وأسلحة غربية. أما نحن، فلا يجب أن نتجاهل أمرين، أو اجتهادين، ولا أقول حقيقتين. أولهما: المقابلة المطولة التي جرت بين الرئيسين، الصيني والأمريكي، على هامش قمة العشرين في بالي، قمة تحتاج منا إلى نظرة متعمقة، ولقاء لا نعتبره لقاء كغيره. أتصور أن في العمق عرضاً من الصين سبقه تمهيد بين خبراء الدولتين. والعرض الصيني يستبق سنوات، وربما عقوداً في علاقات الدولتين، ويعتمد على الاعتراف فوراً، بأن أمريكا باقية قطباً لا غنى عنه، وعن قيادته، والصين قطب صاعد في القوة والمكانة ولا غنى عنه، لشراكته وتحمله أنصبتة في مسؤولية قيادة العالم. وحديث الرئيس الصيني عن استعداد الصين للتعاون الكامل مع الولايات المتحدة كان معنياً بإبلاغ الرئيس الأمريكي أن الرئيس شي يأتي إلى هذه القمة يحمل تفويضاً من المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي الصيني لفتح عهد جديد من التعاون مع أمريكا، يتدرج صعوداً ليصير على مستوى شراكة في قيادة العالم. ثاني الأمرين، أو الاجتهادين، هو اعتراف أمريكي، لا يقل أهمية عن اعتراف أمريكي آخر حمله الرئيس ريتشارد نيكسون، وبصحبه الدكتور هنري كيسنجر، نقل فيه حاجة أمريكا إلى خروج الصين من عزلتها. ربما مست هذه الحاجة في وقتها، أي قبل نصف قرن، ظروف الحرب الباردة في العلاقة بين طرفي القمة الدولية، الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة. وأتصور، ولن أكون مخطئاً في تصوّر، أن النظام الدولي ربما بدأ، هذا الأسبوع، يخطو خطوات مهمة في تجربة انتقال جديدة من عهد إلى عهد.